

الاغتراب في شعر المعتمد بن عباد

م.م أحمد عبد الحميد رسن الأسدي
كلية العلوم / جامعة واسط

ملخص:

يُمثل الاغتراب واحدة من المراحل التي يمكن أن يعيشها الإنسان ، إذ يحمل الأما ومعاناة يعيشها المغترب بكل تفاصيلها ، وثمة أسباباً نفسية واجتماعية وحتى اقتصادية تؤثر في الانسان وتجعله يعيش حالة الاغتراب، هو أمر يُوجبُ البحث والدراسة فيه، لما للحالة النفسية والاجتماعية التي يحياها الإنسان أثر في تبدل نظرته للحياة بجوانبها كافة، كما لها الأثر الكبير في النتاج الشعري ولاسيما إذ ما كان المغترب شاعراً. وتهدف هذه الدراسة إلى الاقتراب من تجربة الشاعر الملك المعتمد بن عباد وتسليط الضوء عليها أثناء محنته في الأسر، وبيان ما عاناه من ذلك المقام وضيق الحال التي وصل إليها، فحالته المتردية جعلت منه إنساناً مختلفاً عما كان عليه في مرحلة الإمارة والملك، وهذا ما انعكس على نتاجه الشعري، فقد إتصفت موضوعاته الشعرية بسمات ومميزات اختلفت في مدة أسره ووجوده في المنفى. وتضمنت الدراسة تمهيداً نظرياً ومبحثين، اهتم التمهيد بعرض شرح موجز لمفهوم الاغتراب وبيان أنواعه، كما سلط الضوء على حياة المعتمد بصورة مختصرة وذلك لأنها تبين أسباب الاغتراب ودواعيه وما أثر في حياة المعتمد بن عباد وبيان اسباب إغترابه، وانعكاس ذلك على مناهل حياته بشكل عام. فيما اختص المبحث الأول بالحديث عن الاغتراب الزماني والمكاني وأثرهما شعر المعتمد في مرحلة الأسر تحديداً. أما المبحث الثاني فقد ابرز مفهوم الاغتراب الاجتماعي وبيّن ما آلت إليه أموال المعتمد بعد اغترابه وكيف أثر ذلك في مجمل مفاصل حياته. وقد جاءت الخاتمة مشتملة على أهم النتائج التي توصل إليها الباحث بعد رحلة الإغتراب التي عاشها المعتمد بن عباد وانعكاساتها النفسية والاجتماعية على مفاصل مهمة من حياته ونتاجه الشعري.

ملخص البحث باللغة الإنكليزية

This study aims at drawing closer to the experience of the poet King Al-Moatamed bin Abbad and shedding light on it during his ordeal in captivity and the suffering he suffered. On poetry, his hair during his reign had features that were not in his poetry during his captivity and exile

The alienation is a distinctive stage in the life of the person because it carries with it pains that are clear evidence of the suffering experienced by its owner in all its details. Man does not resort to alienation without a psychological crisis, which brought with it and combined with life and social reasons that influenced it strongly. The alienation in the life of any person has reversed From the state of kings to the case of the prisoner is a matter of research and study, because of the psychological state and social life of man affected the change of his view of life in all aspects, and have a significant impact in the poetic output, especially since the expatriate poet.

التمهيد- مفهوم الإغتراب وملامح من حياة الشاعر

من مقتضيات هذه الدراسة كان لا بد من تقديم لمحة موجزة عن مفهوم الاغتراب في اللغة والاصطلاح، وتقديم نبذة عن حياة الشاعر وأسباب إغترابه والمراحل الزمنية التي عاشها في خضم تلك المرحلة.

أولاً: مفهوم الاغتراب:

الاغتراب ظاهرة قديمة رافقت الإنسان منذ وجوده على الأرض، ونشأت مع تشكل المجتمعات، وفي ظلها تمحضت بعض الأزمان- بشكل أو بآخر- عن أنواع مختلفة من الاغتراب ، لذا فإن ظاهرة الاغتراب لا ترتبط بمجتمع معين، إنما هي ظاهرة إنسانية يمكن أن تلاحظ وتدرس في كل أنماط الحياة الاجتماعية، إذ إنها مرتبطة بظروف محددة، عاناها الإنسان داخل مجتمعه، وواجهها، وفقاً لحجم طاقاته المادية والروحية، مع أن شدة هذه الظاهرة ومدى شيوعتها نسبياً، ويختلفان باختلاف الثقافات والظروف الاجتماعية، والتاريخية،

والاقتصادية، والسياسية، لذا فهي تقود الأفراد إلى التمرد حيناً، أو تفضي بهم إلى الاستسلام أو الانعزال والانكفاء على الذات أحياناً أخرى.

والاغتراب في اللغة كما جاء في لسان العرب تحت مادة (غ ر ب) :

الغَرْبُ: الذهاب والتتحي عن الناس.

وأغرب وغربة، وأغربه: نحاه.

والغربة والغرب: النوى والبعد، تغرب: ابتعد وفارق.

التغريب: النفي عن البلد.

وغريب: بعيد عن وطنه، والجمع غرباء، والأنثى غريبة ...

والاغتراب: افتعال من الغربة.

وأغرب الرجل: صار غريباً ... ورجل غريب: ليس من القوم.

والاغتراب هو افتعال الغربة والإجبار عليها لسبب ما.^١

والملاحظ أن هناك فرقاً واضحاً بين الغريب: الذي يعيش حالة البعد عن وطنه وأهله، وقومه وأرضه، والمغترب: الذي هو من قصد الغربة قسراً.

أما في الاصطلاح فقد حظي مفهوم الغربة باهتمام كبير في أوساط الفلاسفة، وتباينت مفاهيمه تبعاً لمرجعية المنظرين وتوجهاتهم الفكرية المختلفة. فقد استخدم هيجل مصطلح الاغتراب بطريقة مختلفة، ليشير إلى علامة انفصال أو تنافر، كتلك التي تنشأ بين الفرد والبيئة الاجتماعية.^٢

أما سارتر فيرى أن لمصطلح الاغتراب معنيين: ورد أحدهما في كتابه (الوجود والعدم)، والثاني في كتابه (نقد العقل الجدلي). أما الأول فقد كان بمعنى الاغتراب عن الذات الموضوعية، فنظرة الآخر تجعل الفرد يشعر بموضوعيته وذاته كما يراه الآخر، وفي الثاني فإن السياق الذي يتحدث في إطاره عن الاغتراب هو السياق الماركسي، الذي يعالج علاقة الفرد بنشاطه الإنتاجي، وما يفرضه على ذاته من مشاعر الاغتراب، فهو يصف الإنسان المغترب بأنه الفرد مغترباً ومتشياً.^٣

أما فروم فيستعمل مصطلح الاغتراب بشكل لافت للنظر، إذ يصف به علاقة الشخص بنفسه، وعلاقته بالآخرين، وعلاقته بأشياء أخرى كثيرة، من قبيل الحب والفكر، والأمة والثقافة المعاصرة، وأهم مجالات الاغتراب عنده هي:

١- الاغتراب عن الآخرين: حيث يرى أن جوهر مفهوم الاغتراب هو أن الآخرين يصبحون غرباء بالنسبة إلى الإنسان المغترب.

٢- الاغتراب عن المجتمع: فالمجتمع المُغترب يعني أنَّ هيكله قد أُقيم على نحوٍ يميل معه إلى جعل الأفراد مغتربين بهذه الطرق المختلفة.

٣- الاغتراب عن الذات: الذي يعرفه في كتابه (المجتمع السوي) بأنه: نوعية من التجارب أو الميزات التي يعيش فيها المرء ذاته باعتبارها غريبة عنه، وهذا يعني أنه أخفق في أن يكون ذاتاً أصيلةً.

ويرى سكولز أنَّ الاغتراب "ينشأ من خبرات الفرد التي يمر بها مع نفسه، ومع الآخرين ، ولا يتصف بالتواصل والرضاء، ويصاحبها كثير من الأعراض، مثل: العزلة ، والإحساس بالتمرد، والرفض، والانسحاب والخضوع"°، ولا شك في أنَّ الظروف المحيطة بالإنسان، من أزمنة تؤثر فيه، وتجعل معاناته بارزة، وتعمق إحساسه بالاغتراب في مختلف أنواعه، ممَّا يجعل الاغتراب حالة يعبر فيها الفرد عن انفصاله عن ذاته، حيث ينفصل عن مشاعره الخاصة، ورغباته ومعتقداته، وهو فقدان الإحساس بالوجود الفعَّال، وغالباً ما يقود الاغتراب إلى عدم الشعور بالانتماء إلى المجتمع أو الأمة، فيغدو حالة يشعر فيها الفرد بأنه منعزل عن المجتمع^٦.

ثانياً : حياة المعتمد بن عباد مراحل ومحطات:

سيرة الإنسان هي ثمار معطيات كثيرة ومراحل مختلفة وتقاليد استشرت في تربة التاريخ مسابقة وجوده فسائرها أو غيرها في ملابس البيئة والمحيط من زمان ومكان.

إنَّ المعتمد ليس إلا فرداً متميزاً ومثالاً بارزاً لأرستقراطية السيف والمال في مجتمع ملوك الطوائف في بلاد الأندلس وهي صفة تلتصق بأغلب الحكام.

ولد المعتمد بن عباد في بلدة باجة غربي الأندلس عام ٤٣١هـ وأبوه هو الملك المعتضد عملاق ملوك الطوائف، وبقي المعتمد في قصر أبيه يعيش حياة الترف والانغماس في الملذات، عُيِّن حاكماً على سهل و هو في سن الرابعة عشر من حياته، وفي عام ٤٥٠هـ عيِّن ولياً للعهد، وبعدها بإحدى عشرة سنة تولى عرش إشبيلية بعد وفاة أبيه، ووجد نفسه فوق عرش وطيء الأركان متين البنين، ينعم بالاستقرار والنظام، وبعدها بمدة وجيزة نشأ خلاف كبير بين المعتمد حاكم إشبيلية وباقي حُكَّام الطوائف في الأندلس، أدى الخلاف إلى حربٍ طويلةٍ ممَّا دفع المعتمد إلى عقد حلف مع الفونس السادس الذي غدر به بعد الاتفاق كونه وجه قادة دولة المرابطين للحرب على المعتمد ، ممَّا جعل المعتمد في مواجهة حادة مع كل من حوله، وغزا الفونس السادس التخوم والجبهات الأندلسية وعاث فيها فساداً من قتل وحرق ، وكان يوسف بن تاشفين قائداً لهذه المعركة التي سُميت بمعركة الزلاقة (٤٧٨هـ) التي ادت لأسر المعتمد وتخريب دولته من خلال محاصرة إشبيلية^٧.

اتصل المعتمد بملوك الطوائف طالباً إليهم إيفاد رُسل عنهم ليكونوا وفداً يسير إلى يوسف بن تاشفين، يدعوهم إلى نصرته المسلمين في الأندلس من هجمات الفونس السادس، ولَبَّى يوسف بن تاشفين طلب ملوك الطوائف وعبر البحر ثم اجتمع معهم، ووجد الصفوف وانتصر في موقعة الزلاقة على الفونس ودحروه عن البلاد، وبعدها رجع يوسف بن تاشفين إلى مراكش، وعاد ملوك الطوائف إلى سابق سيرتهم باستقلال كل منهم

بمقاطعته، بل إنَّ بعضهم لم يتوانَ عن وضع يده بيد الفونس السادس، ولذا ذهب المعتمد بنفسه إلى مراكش طالباً نجدة المرابطين، واستجاب ابن تاشفين للطلب، وحين وصوله رأى يوسف واقَعَ ملوك الطوائف المتخاصمين وفيهم من يدعم القوى الإسبانية، فقرر ابن تاشفين العودة إلى مراكش وإعداد جيش يستطيع به إخضاع كامل الأندلس لسيطرته، وهذا ما حصل فبدأت القوى المرابطية تُسَقِّطُ مقاطعات ملوك الطوائف واحدةً تلو الأخرى^٨.

شعر المعتمد بسوء المصير، فعاد لالتماس نصرة الفونس السادس ولكنه لم ينجده خوفاً من أن يكون هذا الأمر خديعة، وتآكلت أطراف دولته تحت ضربات المرابطين، ودخلوا معقل المعتمد وحُمل هو وأسرته إلى طنجة مُقيداً ذليلاً، ثم حُمل المعتمد إلى مركز أسره بأغصات الموجودة في المملكة المغربية.

"أقام المعتمد في أغصات أسيراً وقد ضيق عليه، كاسف البال، كسير القلب، يُسام سوء المعاملة، ويتجرع مرَّ الهوان وتزدحم على خواطره الهموم، وتطوف به ذكريات ملكه السابق ومجده السالف، وليس إلى جانبه صاحب، وكان يؤلمه ويشقيه منظرُ بناته الناشئات في ظلال النعيم، وهنَّ الآن في الأطنام يغزلن ليحصلن على القوت"^٩.

ويضاف إلى كل ذلك "ما يتوارد إليه من أنباء أبنائه مما يُثقل عليه عبء المصيبة ويُجسم لعينيه شبح الهول... فالمرابطون بعد أن دكوا إشبيلية توجهوا إلى قرطبة وكان عليها ابنه المأمون الذي ثبت على قتالهم شهوراً، لكنهم اقتحموا المدينة وقتلوه وحزوا رأسه ورفعوه على رأس رمح طيف به... وكان له ولدان آخران هما المعتد بالله والراضي بالله، وكل منهما معتصمٌ بحصن منيع، وقد حمل الملك المغلوب على الكتابة إليهما بالتسليم ففعلاً برأ به، ورحمة بأمهما وكانت نهاية الراضي القتل غيلة، والمعتد سُلِب كل ما يملك ثم اختفى أثره، وأما بثينة ابنته الكبرى فقد سُبيت وبيعت ببيع العبيد من رجل أرادها سرية لابنه، ولكنها أبثت عليه، وأبرزت ما يثبتُ حسبها فتزوجها الرجل زواجاً شرعياً بعد موافقة أبيها، كما كان له ابن آخر واسمه فخر الدولة، وعلى ما تذكر المصادر أنَّه كان صغيراً وقد دفعته الحاجة إلى أن يعمل نافخ كورٍ لدى صائغ، ناهيك عن باقي بناته اللاتي دفعتهن الحاجة إلى أن يغزلن بالأجرة مسكاً للرمق"^{١٠}.

المبحث الأول - الاغتراب الزماني والمكاني

نضجت مسألة الإغتراب عند شاعرنا نضجت بسبب المنفى وما طرأ من تغيير في حياة الشاعر على المستوى الزمكاني المتأني من بؤس النفي وألم الإنحدار بالمستوى العام للشاعر من الجانب الحياتي، فضلاً عن ذلك الرؤية المأساوية التي نتجت عن هذا المنفى وانعكاساته.

أ- الاغتراب الزماني والشكوى من الزمن:

إنَّ المآسي التي مرت بالمعتمد بن عباد وفقدانه المُلك والجاه وحياة الملوك التي كان يحياها جعلت منه مُغترباً عن زمنه الذي وصل إليه في السجن، ولعلَّ الشكوى من تغيّر الزمان وقسوة الدهر قديمة قدم الإنسان، فالإنسان يشتكي من الدهر وصروفه، ويكي الأيام الخوالي، ويزعم أنَّ الأيام التي ذهبَتْ كانت أفضل من أيامه التي يعيشها في وقته الراهن، وهذا الزعم يخص على وجه اليقين أوضاعه التي يعيشها، وما تحمله من تغيير يطرأ عليه شخصياً، لأنَّ الأيام ثابتة على حالها والإنسان هو الذي يتغير من حال إلى حال، ولكنه

يُحْمَلُ الأيام مسؤولية التغيير الذي ينتابه، وأكثر ما تبدأ الشكوى من الدهر وتتعاظم في وجدان الإنسان حينما ينقلب زمنه من زمن مُلْكٍ وسلطان إلى زمن أسْرٍ وحبسٍ ذليل، والمعتمد بن عباد يشكو زمانه الذي وصل إليه في سجن أغمات، ويبيكي أيامه الخوالي في قصره، يقول:

أصبحت صفرًا يدي ممّا تجود به ما أعجب الحادث المقدور في رجب
 ذلٌّ وفقرٌ أزالا عــــــزةً وغنى نُعْمى الليالي من البلوى على كُثب
 قد كان يستلبُ الجبارَ مهجته بطشي ويحيا قَتيلُ الفقر في طلبي
 والملك يحرسه في ظل واهبه غُلَبٌ من العجم أو حشَمٌ من العرب^{١١}

هذه الأبيات من قصيدة أرسلها المعتمد إلى رجل يُعرف بابن الزنجاري الذي سأل المعتمد أن يزوده من شعره وفضله، فيصف المعتمد له سوء حاله وما وصلت إليه حياته من الفقر فقد أصبح خالي اليد، لا يستطيع الجود والتكرم والإحسان، فيرسم صورة فردوسه الذي فقده في بلاد الأندلس، ويذكرُ المعتمد هذه الحياة الرغيدة التي كان يحياها لم يكن لولا سوء حاله وقسوة الزمان عليه في سجن أغمات، هذه الشكوى انطلقت بعد تبدل حياته، فهو الملك الذي يهابه كل جبار، وكل فقير كان يعيش مُنعمًا تحت ظل جوده وكرمه، وحاله في السجن مغايرة تمامًا لحياته السابقة، وقد حُرِمَ مجده وحاشيته وخدمه وحشمه، إنَّ بكاء المعتمد على ما فقده ينمي بقوة عن اغترابه عن الزمان الذي يعيشه في سجن أغمات، فالإنسان لا يهرب من واقعه وحاضره إلى الماضي إلا حينما يكون هذا الحاضر قاسياً مؤلماً، فيغترب عنه ويحاول نسيانه من خلال الرجوع إلى الماضي الذي يجد فيه موطن الهناء.

وفي موضع آخر من شعر المعتمد نلاحظ وبوضوح اغترابه وشكواه من الزمن الذي وصل إليه، فنراه يتغنى بكرمه وعطائه الذي كان يغدقه على الناس، ثم ينتقل ليبيكي حاضره الذي يكرهه، يقول:

كنتُ حَلَفَ الندى وربَّ السماح وحبیبُ النفوس والأرواح
 إذ يميني للبلذل يوم العطايا ولقبضِ الأرواح يوم الكفاح
 وشــــمالي لقبض كل عنان يقحم الخيل في مجال الرماح
 وأنا اليوم رهْنُ أســــرٍ وفقرٍ مُستبأح الحمى مهيضُ الجناح
 لا أجیبُ الصــــريخ إن حضر الناس ولا المُعتفين يوم السماح^{١٢}

هذه الأبيات السابقة تعطينا صورة واضحة عن الحال التي وصل إليها المعتمد، فأسرته منعه إغائته من هم في حاجة له، هذه الشيمة التي يفتخر بها كل عربي، وهو أيضاً يقدم صورته المحببة التي كان عليها بين أهله وأهل بلده، وهذه الصورة لم يذكرها لولا أنه أفتقدها في سجن أغمات، وهذا خير دليل على اغترابه الشديد عن زمنه الراهن.

وما عمق اغتراب المعتمد وزاد مأساته وطأة؛ هو دخول بناته السجن عليه في يوم عيدٍ وكُن يغزلن للناس بالأجرة في أغمات فراهن في ملابس رثة، وفي حالةٍ يُرثى لها، فصدع ذلك قلبه وأنشد يقول:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في أغمات مأسوراً
تري بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للناس لا يملكن قطميراً
يطأن في الطين والأقدام حافيةً كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً
قد كان دهرُك إن تأمره مُمتثلاً فردك الدهر منهياً ومأموراً^{١٣}

هذه الحال التي رأى المعتمد فيها بناته زادت من شكواه واغترابه، وجعلته يتذكر الرفاه والنعيم الذي كان يعيشه هو وأبناؤه، ويبيكي الأيام التي كان فيها ملك وكل من حوله مُمتثل له، ليغدو مسجوناً أسيراً لا سلطان له.

ب- الاغتراب المكاني:

إنَّ المكان ليس حادثاً طارئاً في الشعر العربي عامة والأندلسي خاصة، وإنما هو رؤية خاصة تشكلت عنده وظيفة معينة أرادها الشاعر أن تصل إلى متلقيه، فقد شكل تمسك الشاعر الأندلسي بالمكان وتردده في شعره جملة من الدلالات وتصوراً لما تحمله رؤيته الخاصة للمكان، خاصة إذا تعرض لمحنة الأسر بعد سلب الملك الأمر الذي حصل مع المعتمد بن عباد، فقد انتقل قسراً من كونه ملكاً لإشبيلية أقوى دويلات الطوائف إلى أسير أمضى ما بقي من عمره يبكي في سجن أغمات مجده ومجد آبائه^{١٤}.

إنَّ علاقة الإنسان بالمكان هي علاقة متعددة تنطوي على جوانب شتى، فهناك أماكن تساعد على الاستقرار ويرى الإنسان فيها رغد العيش وجماله فيها، وهناك أماكن تعيق من سعادة الإنسان فيرى فيها أقسى ظروف الحياة وأصعبها، وهذه هي حال المعتمد الذي يغترب عن مكانٍ لا يرى فيه سوى الظلمات والقهر والفقر، ورغب في التخلص منه، ويحاول الرجوع بالذاكرة قليلاً ليتذكر أماكن كان فيها المعتمد ملكاً يعيش أسعد أوقاته فيها، ولا سيما قصر الزاهي الذي هو أحد القصور التي كان يعيش فيها المعتمد، ويصف لنا المقري صاحب النفع قصر الزاهي، فيقول: "وكان قصر الزاهي من بين أجمل المواقع لديه وأبهاها، وأحبها إليه وأشهاها، لإطلاله على النهر وإشرافه على القصر، وجماله في العيون واشتماله بالزهر والزيتون"^{١٥}. والمعتمد يكثر من تعداد الأمكنة الجميلة وهو لا يقصد من وراء ذلك سرد تقرير لأحداث تاريخية، ولكن يذكرها لما لهذه المواقع من خصوصية عنده، ولأنه شعر حقاً بفقدانها، ولِيُظهر مدى التصاقه بها فجعلها هي التي تبكي عليه وتحنُّ إليه، وهذا يشير إلى قسرية القهر والاغتراب المكاني الذي حلَّ بالمعتمد في السجن، فهو يرى نفسه غريباً في مكان ليس مكانه، ويتوق ويمتلك رغبة عارمة في العودة إلى الأمكنة التي يرى نفسه فيها، يقول:

تؤمل للنفس ————— الشجيرة فرجةً وتأبى الخطوب السود إلا تمادياً
لياليك من زاهيك أصفى صحبتها كذا صحبت قبل الملوك الليالي^{١٦}

وهنا الشاعر ينسج خيوط الأمل للعودة إلى الفرح في كنف وطنه الجميل حيث العيش الرغيد، ويرغب في الخلاص من سجنه الذي هو فيه مُغترب لما فيه من القسوة والسوء، وهذا ما يُفصح عنه النص ولا سيما استعمال الشاعر التناقض الذي يعطي صورة عن التناقض الذي حصل معه في حياته (الزاهي-السجن) فالزاهي هو جنته المفقودة والتي يرغب في العودة إليها، والسجن هو موطن غربته ومكان بؤسه وشقائه والذي أثقل روحه وبدنه، يقول أيضاً في قصيدة أخرى:

غُنْتُكَ أَغْمَاتِيَّةُ الْأَلْحَانِ ثَقُلْتُ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَبْدَانِ^{١٧}

لقد كان السجن بالنسبة إلى المعتمد موطناً للقهْر والذل والفقر، ففيه تتعطل الحياة، فهو يرتبط دائماً بالوحشة والعزلة والأسر، وسجن أغمات يغدو مكاناً معادياً للمعتمد، فهو بداية لنهاية حياته، وهو المكان الذي يشهد على ذله بعد عزه، يقول:

فِي مَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا فَسَاءَكَ الْعَيْشُ فِي أَغْمَاتِ مَأْسُورًا^{١٨}

ويقول أيضاً

أُضَاءَ لَنَا أَغْمَاتُ قَرْبِكَ بُرْهَةً وَعَادَ بِهَا حِينَ ارْتَحَلْتَ ظِلَامًا^{١٩}

هذا المكان الذي يشتكي منه ويشعر المعتمد فيه بأنه غريب، هو مكانٌ مظلمٌ ظلمة أطبقت على صدره وأثقلت كاهله، وهذا مؤشرٌ قويٌّ على كره المعتمد لهذا المكان وتمنيه الخلاص منه، إلا أن حاله في الأسر في استمرار دائم، هذه العربة التي يعيشها قسراً لم تكن لولا الغدر الذي مُني به المعتمد كما يرى هو، يقول:

وَأَبْقَى أُسَامُ الذَّلِّ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ وَمَا كُنْتُ لَوْلَا الْغَدْرُ ذَاكَ أُسَامُ

فَبُلَّغَتْهَا فِي ظِلِّ أَمْنٍ وَغَبْطَةٍ وَسَيَّيَ لِي مِمَّا يَعُوقُ سَلَامًا^{٢٠}

لابد لكل قارئ لهذا النص أن يشعر بعمق دلالاتها وما يعانیه الشاعر من إحساس بالإحباط واليأس والحزن الشديد الذي أجتاح وجدانه، وحاول بثه في ثنايا قصيدته هذه، وهذا الحزن وذلك التشاؤم يعدان مظهراً من مظاهر الاغتراب، لما لهما من مؤشرات سلبية تصطبغ بها نفس الشاعر حين تموت بداخله أحاسيس الأمل والتفاؤل، وما يضيف عليه الواقع من نظرات سوداوية تلون حياته بقتامة لونها، وهذه النظرة سيطرت على حياة المعتمد في السجن، وظهرت جلياً في شعره.

المبحث الثاني- الاغتراب الاجتماعي

الكثير منا قد يعيش مرحلة الاغتراب الاجتماعي، إلا أن هذه المرحلة عند الشعراء تأخذ بُعداً آخر من خلال تجسيدها شعرياً بروح سجلت في مكانها ملامح ألم وجزع لا يمكن للإنسان غير الشاعر تجسيدها والبوح بخلجاته.

الاغتراب عن الدنيا وتمني الموت:

إنَّ الغربة تنطوي في أساسها على الاستسلام للواقع الذي يعيش فيه الإنسان وعدم مقدرته على التغيير، الإحساس بعدم الانسجام فيحاول الإنسان الانسحاب من هذا الواقع والزهد في حياته، ويتمنى إنهاء هذه المأساة التي يعيشها. ولو تتبعنا أشعار المعتمد بن عباد أثناء سجنه في أغمات لوجدنا هذا الشيء، فهو مأسورٌ فقدَ كلَّ ملكه ومجده، يقيم في سجنٍ أسودَ جعله يائساً من حياته التي يحياها، وهذا تحول جذري في حياة المعتمد، إذ غدت الدنيا في نظره دنيّةً سوداء، فيريد التخلص منها، وعندما كان الوزير أبو العلاء زهر بن عبد الملك بمراكش قد استدعى أمير المسلمين لعلاج، فكتب إليه المعتمد راجباً في علاج بعض كرائمه ومطالعة أحوالها بنفسه، فقام بعلاجها، ورفع قدر المعتمد بالتبجيل، ودعا له بالبقاء الطويل، فكتب إليه المعتمد إثر ذلك بهذه الأبيات^{٢١}، يقول المعتمد:

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى أسيرٌ أن يطوّل به البقاء

أليس الموتُ أروحَ من حياةٍ يطوّل على الشقي بها الشقاء

فمن يك من هواه لقاء حبٍ فإنّ هواي من حتفي اللقاء^{٢٢}

إنَّ الدعوة إلى نبذ الدنيا ومباهجها وتحقيرها إنما هي سلوك انكفائي وانسحاب إجباري من الحياة يسميه المحللون الانتحار النفسي ويُعرف بأنه (نوع من الانتحار غير الصريح) حيث يزهد البعض في الحياة تماماً ويبغضونها^{٢٣}، وقد تطور هذا النبذ إلى تمني الموت، إنَّ المعتمد إذ ينزعج من دعاء صديقه ويتعجب منه لم يكن غرضه إلا التعبير عن نفسية تتعذب وتتحطم وتدرّك أنَّ عذابها لا حلَّ له، وهذا العذاب يشتدُّ حينما يرى بناتّه فقيراتٍ عارياتٍ لباسٍ يليقُ بهنَّ، يقول:

أ أرغبُ أن أعيش أرى بناتي عواري قد أضرب بها الحفاء

خوادم بنت من كان أعلى مراتبه - إذا أبدو - النداء^{٢٤}

وأمام هذا العذاب وهذه الحال المزرية تشتعل نيران اليأس في قلب المعتمد، فلا يجدُ أفضل من تمني الموت والابتعاد عن هذه الحياة القاسية التي أذاقته أسوأ صنوف المر وقساوة العيش، وتصل ذروة اغتراب المعتمد في الحياة حينما أحسَّ بدنو أجله فشرع يرثي نفسه بأبيات مُثقلة بمعاني اليأس والإحباط، وتشفُّ معاني الزهد من الحياة التي لم يعد يطيق وجوده فيها، يقول:

قبر الغريب سفاك الرائح الغادي حقاً ظفرت بأشـلاء ابن عباد

بالحم، بالعلم، بالنعمى إذا اتصلت بالخصب إن أجذبوا بالرّي للصادي

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بالموت أحمر بالضـرغامه العادي

بالدهر في نعم، بالبـحر في نـعم بالبدر في ظلم، وبالصدر في النادي

نعم، هو الحق وفاني بـه قدر من السـماء فوافاني لميعاد

ولم أكن قبلُ ذاك النعش أعلمه أن الجبـال تهادى فوق أعواد

كفاك فارفق بما استودعت من كرم رَوَاك كُلُّ قطـوب البرق رعاد

يبكي أخاه الذي غَيَّبَتْ وأبْلَسَه تحت الصَّفح بدمع رائح غادي
حتى يَجُودَكَ دمعُ الطَّلِّ منهمراً من أعين الزَّهر لم تبخل بإسعاد
ولا تزال صـــــــــــــــــلواتُ الله دائمةً على دَفِينِكَ لا تُحصي بَتَّعداد^{٢٥}

إنَّ الرجوع إلى الماضي والتغني بأشياء كانت في متناول يد الإنسان ليس إلا آلية هروب من واقع مر سيء، فالمعتمد يتغنى بنفسه ويسهب في ذكر محاسنه، وكل الخصال الحميدة فيه، ويفتخر بكونه فارساً يبغي الموت بساحات المعارك ولكن القدر اختار له الموت في سجنه، وينتقل ليرى بنفسه أنه جبلٌ ذكٌ فهو متهادياً، لكنه يبقى فوق ذلك المعتمد بن عباد الملك الذي عرفه الناس وأحبوه.

الخاتمة

كانت رحلة البحث مع الغربة في شعر المعتمد بن عباد ممتعة بالقدر الذي كانت فيه مأساوية. وقد خلص البحث إلى النتائج الآتية:

- ١- كان للظروف التي عاشها والحال التي وصل إليها أثرٌ كبيرٌ في اغترابه، وهو ما جعله يعيش أسوأ لحظات عمره ، ولا سيما في سجن أغمات.
- ٢- كان المعتمد في بداية أمره مغترباً عن زمانه الراهن في الأسر ويحاول استعادة تاريخه المجيد، وبعدها ينتقل للتعبير عن اغترابه في المكان الذي أنهى حياته به.
- ٣- وصل المعتمد إلى ذروة الاغتراب من خلال زهده في الحياة وتمنيه الموت، للتخلص من الحياة القاسية التي كان يحياها.
- ٤- تميز نتاجه الشعري بمفردات الأسى والألم، وبالتراكيب الموحية بالحزن والندم.
- ٥- على الرغم من اغتراب المعتمد ومعاناته إلا أنَّ شعره لم يخلُ من خطاب الملوك وأسلوبهم في التعامل وهذا ما ينمي عن نفس ملك وفارس من سلالة ملوك.

هوامش البحث

- ^١ ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (غرب) .
- ^٢ ينظر: الاغتراب ، ريتشارد شاخت ، ترجمة كامل حنين : ١٤١ .
- ^٣ ينظر: الاغتراب ، ريتشارد شاخت : ١٤٦ .
- ^٤ ينظر: الاغتراب، ريتشارد شاخت : ١٨٠-١٨١ .
- ^٥ الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً، سعد بلعاد: ٥٦ .
- ^٦ ينظر: نظرية الاغتراب، السيد علي شتا: ٢٢٦ .
- ^٧ ينظر: المعتمد بن عباد، نديم مرعشلي: ١١-١٢-١٣ .
- ^٨ ينظر: المعتمد بن عباد، نديم مرعشلي: ٣٧-٤٠ .
- ^٩ المعتمد بن عباد، علي أدهم : ٢٩٢ .
- ^{١٠} المعتمد بن عباد: ٤٠-٤١ .
- ^{١١} ديوان المعتمد بن عباد (ملك إشبيلية) ، جمعه وحققه: حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي: ٩٢ .
- ^{١٢} المصدر نفسه: ٩٤ .
- ^{١٣} المصدر نفسه: ١٠٠-١٠١ .

- ^{١٤} يُنظر: تداولية المكان في أسريات المعتمد بن عباد، عائشة عويسات: ٢٦٥.
- ^{١٥} نفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب، المقري، تح: د. إحسان عباس: ٢٧٤/٤.
- ^{١٦} ديوان المعتمد بن عباد : ١١٧.
- ^{١٧} المصدر نفسه: ١١٥.
- ^{١٨} المصدر نفسه: ١٠٠.
- ^{١٩} المصدر نفسه: ١١٣.
- ^{٢٠} المصدر نفسه: ١١٤.
- ^{٢١} يُنظر: المصدر نفسه: ٩٠.
- ^{٢٢} المصدر نفسه: ٩٠.
- ^{٢٣} يُنظر: الاضطرابات السلوكية، (تشخيصها، أسبابها، علاجها)، حسين الفايد: ٢٤٢.
- ^{٢٤} ديوان المعتمد بن عباد : ٩٠.
- ^{٢٥} المصدر نفسه: ٩٦.

المصادر والمراجع

- ١- الاضطرابات السلوكية، (تشخيصها، أسبابها، علاجها)، حسين الفايد، مؤسسة حورس للنشر، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠١ م.
- ٢- الاغتراب، ترجمة كامل حنين، ريتشارد شاخت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٢ م.
- ٣- الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً، سعد بلعاد، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٦ م.
- ٤- نظرية الاغتراب، السيد علي شتا، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٣ م.
- ٥- تداولية المكان في أسريات المعتمد بن عباد، عائشة عويسات، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، الجزائر، العدد التاسع/صيف ٢٠١٦ م.
- ٦- المعتمد بن عباد، علي أدهم، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، د.ت.
- ٧- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر ، لبنان.
- ٨- ديوان المعتمد بن عباد (ملك إشبيلية) ، جمعه وحققه: حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط٣، ٢٠٠٠ م.
- ٩- نفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب، المقري، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨ م.
- ١٠- المعتمد بن عباد، نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.